-3-

الإسلاميون المحدثون

التقسيم السنى/ الشيعى:

يتميز التاريخ الشيعى فى إيران بالاستمرارية والتغير فى آن. فى الفترة المبكرة، أى فى حوالى القرن السابع، تحدت المجموعات الشيعية، بصفتها أقليات شرعية الخلفاء وتسلسلهم. أثناء حكم الأسرة الصفوية(١) فى إيران (بين القرنين السادس عشر والثامن عشر) تقبل رجال الدين الشيعة الملكية الصفوية حامية للمذهب الشيعى راعية له. وبعد ثورة ١٩٧٩ حينما وصل رجال الدين الشيعة إلى السلطة، قاموا بتحدى الحكام الظالمين على نطاق المنطقة والكوكب. بيد أن حكم رجال الدين الشيعة اليوم يواجه التحدى من قبل الإسلاميين المحدثين الذين يحاولون فصل الدين عن السياسة والدولة. يتفحص هذا الفصل هذه التطورات التاريخية ويذهب إلى أن السياسة الخارجية الإيرانية القوية التى تحوز الإعجاب فى بلدان الشرق الأوسط لها جذورها فى التأويل الدينامى المتجدد للفلسفة الشيعية فيما يتعلق بالحق فى تحدى الحكام المستبدين:

(١) سلالة ملّكت فى إيران ١٥٠١ - ١٧٣٦. كانت طريقة صوفية نشأت فى أردبيل، تنتسب إلى صفى الدين الأردبيلى. أسس الدولة إسماعيل I. الأق قيونلو واتخذ تبريز عاصمة وتلقّب بالشاه وأعلن الشيعة مذهب الدولة. هزمه العثمانيون فى جالدران. نقل مهماسب I العاصمة إلى قزوين عام ١٥٥٥ بعد سقوط تبريز بيد العثمانيين ثم نقلها عباس I الكبير إلى أصفهان عام ١٥٩٣. احتل الأفغان أصفهان عام ١٧٢٢ فطردهم القائد نادر شاه وأعلن نفسه ملكا عام ١٧٣٦ وانقرضت السلالة بموت عباس الثالث . (الترجمة: عن معجم المنجد فى الأعلام)

obeikandl.com

ثمة ١,٣ مليار مسلم فى العالم، ١٥٪ منهم شيعة و٨٥٪ من أهل السنة. تتركز المجموعات الشيعية فى الشرق الأوسط – من لبنان إلى باكستان – حيث تتساوى أعداد السنة والشيعة.

تحيى المجموعات الشيعية فى العاشر من محرم ذكرى استشهاد الإمام الحسين حفيد رسول الله بكربلاء فى عام ٦٨٠م، كما يحيون ذكرى الأربعين لاستشهاده ويرون أنه قُتِل وهو يقاوم الطغيان. ترمز تلك المناسبات والتجمعات المشحونة عاطفيا إلى معارضة الحكام القامعين اليوم، لأن المجموعات الشيعية أقليات فى كثير من المجتمعات الإسلامية بالشرق الأوسط وشمال إفريقيا ووسط آسيا وجنوبها (باستثناء إيران والعراق). أبقت تلك المجموعات بصفتها أقليات، طوال تاريخها، على إحياء ذكرى تلك الأحداث، ليس فقط بصفتها صراعا تاريخيا، بل كتحدٍ

ضد الحكام المستبدين والعدوان الأجنبى اليوم، لا تسمح لهم الحكومات أحيانا بذلك لأنها تنظر إلى تلك المناسبات بصفتها تحديا للأنظمة الحاكمة.

توضح أمثلة عديدة هذه المشاعر القوية. تم تحدى دور شاهات أسرة بهلوى فى إيران بأسلوب أدى إلى ثورة ١٩٧٩، وكذلك دور صدام حسين فى العراق، ودور إسرائيل فى لبنان وفلسطين. حينما سقط نظام حسين فى ربيع ٢٠٠٣ أحيا ٢ مليون شيعى فى كربلاء ذكرى الأربعين لاستشهاد الحسين، وكان صدام حسين قد حظر تلك التجمعات لسنوات عديدة. تظاهر هؤلاء لتوضيح هويتهم السياسية/ الدينية التى كان صدام حسين قد أنكرها عليهم. عَبر عشرات الآلاف من الإيرانيين ومعظمهم من الفقراء وكبار السن، وليس معهم سوى لفافات أطعمتهم، عبروا الحدود

الإيرانية العراقية لزيارة أضرحة الأئمة الشيعة فى العراق والتى كان صدام قد حظر عليهم زيارتها. كانت أضرحة الأئمة الشيعة فى العراق وسوريا وأنحاء أخرى، بقبابها الذهبية، وقراميدها الخضراء والزرقاء، وجدرانها التى تغطيها المرايا، وثرياتها وسجاجيدها، كانت هدايا من الملوك والشاهات الإيرانيين، وكذلك أثرياء التجار الإيرانيين وظلت المطابخ الكبيرة الملحقة بتلك الأضرحة تطعم الفقراء فى أنحاء المجتمعات ذات الغالبية الإسلامية.

تعود أصول الانقسام الشيعى السنى إلى سنوات الإسلام المبكرة، ولا يتعلق هذا الانقسام فقط بالاختلافات الأيديولوجية، بل بالقراءات المختلفة للتاريخ والسلطة السياسية والهيمنة والخضوع وتفرد الهوية، كما يرى شريعتى. بعد وفاة الرسول (صلى الله عليه وسلم) عام ٦٣٢م، اتبع غالبية المسلمين التقاليد القبلية لاختيار رئيس الأمة الإسلامية من قبل مجلس من الحكماء من كبار السن الموقرين، من ثم، اختار المجلس أبا بكر خليفة للرسول، فيما رأت مجموعة صغيرة من الصحابة ابن عم الرسول وصهره على بن أبى طالب أحق بخلافته. أصبح أبوبكر هو الخليفة وتقبل علىٌ نتيجة الإجماع. بعد أبى بكر، تم اختيار عمر، ثم عثمان، وأصبح علىّ الخليفة الرابع. بيد أن الشيعة (أتباع على) مضوا يتحدون تلك الاختيارات، ويرون حتى اليوم أن خلافة الرسول يجب أن تنحصر فى آل البيت، أى نسل على وفاطمة وابنيهما الحسن والحسين. يزعمون أن الرسول، أثناء عودته من مكة بعد حجة الوداع، أعلن عليًا، لدى غدير خُم، خليفة له، من ثم أصبح عليًا قائدهم الأول. وانحصرت القيادة فى أحد عشر من نسله.

منذ وقتئذ انقسم المسلمون إلى فريقين: أهل السنة والجماعة، الذين يرون نظام الخلافة استمرارا للنبوة، والشيعة من أتباع على الذين يرون

الإمامة استمرارا لرسالة النبى. وكما يذهب محمد غوتشانى وجميلة كاديڤار، لم يسائل خطاب الشيعة السياسى، بصفتهم حزبا دينيا/ سياسيا مسألة خلافة الرسول فقط، بل أيضا مسألة زعامة الأمم الإسلامية وشرعية تلك الزعامات.

أثناء الفترة بين عامى ٦٣٢ و٦٦١، حينما خلف أبا بكر عمر ثم عثمان ثم على فى النهاية، تعاظم الصراع بين المذهبين . قتل أبو لؤلؤة المجوسى، أسير الحرب الإيرانى، عمر، ثم قُتِل عثمان على يد بعض الجنود المسلمين المتمردين. كان أبو بكر قد تحدى عليًا، وتحدته بعده السيدة عائشة، ثم معاوية (ابن عم عثمان والذى كان حاكم دمشق)، ثم قُتِل فى النهاية.

بعد وفاة على، وفى ظل الحكم الأموى (٦٦١- ٧٥٠) تحول نظام الخلافة من علاقة متداخلة بين الدين والسياسة والقيادة، إلى فصل بين الدين والسياسة، وأوكلوا المهام الدينية إلى علماء الدين. قبلت غالبية أهل السنة النظام الجديد، لكن الشيعة مضوا فى تحديهم للأمويين. انتفض الحسين بن على وأهل الكوفة ضد الحكام الأمويين وواجه الحسين وشقيقه الحسن وجنودهم الجيش الأموى السورى فى كربلاء وهزمهم القائد الأموى. رافقت السيدة زينب، شقيقة الحسين، رأس شقيقها إلى دمشق، حيث نجحت فى الدفاع عن حياة ابنه، الحسن بن الحسين الذى خلف والده كرابع إمام شيعى. ضمنت زينب بنجاحها فى هذه المهمة استمرار المذهب الشيعى ودُفِنت فى دمشق، وأصبح ضريحها مزارا للحجاج الشيعة.

قام خلفاء بنى أمية الذين حكموا من دمشق، والخلفاء العباسيون الذين حكموا من بغداد (٧٥٠ – ١٢٥٨) بسجن الأئمة الشيعة وقتلهم. كانت مساجدهم تهاجم أثناء احتفالات عاشوراء وإحياء ذكرى أربعين

استشهاد الحسين . هرب القادة الشيعة إلى إيران وأفغانستان والهند، وكنتيجة لذلك ظهرت الأضرحة والمقامات التى تؤمها المجموعات الشيعية فى جميع أنحاء تلك البلاد (شريعتى).

تمكنت بعض الجماعات الشيعية من حكم أهل السنة لفترات قصيرة: مثلا، حكم البويهيون الفرس بغداد فى منتصف القرن العاشر، وحكم الفاطميون مصر لمدة قرنين. بيد أن تلك الفترات كانت قصيرة نسبيا، وعاشت الجماعات الشيعية فى غالبية الأحيان كأقلية يحكمهم أهل السنة. مضت الجماعات الشيعية فى تحدى شرعية الحكام الأمويين والعباسيين فى دمشق وبغداد، ورأوا أن خط القيادة استمر حتى عام ٨٧٤م حينما أخفى الله، بمعجزة، الإمام الثانى عشر، أو المهدى وهو فى عمر التاسعة.

وفى هذا السياق، تعتقد الجماعات الشيعية أن عودة الإمام المهدى ستأتى معه بنهاية الزمان والعدالة الربانية الكاملة. غدت تلك النظرة المسيانية التى تماثل نظيرتها لدى اليهود والمسيحيين والزرادشت، الخطاب الجديد المهيمن للمذهب الشيعى بإيران.

تشمل المدارس الفقهية السنية المذهب الحنفى والمالكى والشافعى والحنبلى. وتشمل المدرسة الشيعية الإثنى عشرية (فى إيران بشكل رئيسى) والإسماعيلية، والعلوية (فى سوريا بشكل أساسى) والزيدية. ظهرت الصوفية فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر فى العراق ومصر؛ وتماثل المذهب الشيعى فى بعض أوجهها. يُنظر إلى الأئمة الشيعيين وقادة الطرق الصوفية على أنهم وسطاء بين الله والبشر. ويحب الصوفيون عليًا بأكثر مما يحبه الشيعة. ولّد تأثير الصوفية اهتماما بالشيعية فى كثير من المجتمعات السُنية ورفض أهل السنة المتشددون الشيعية والصوفية معا، وتتعرض الجماعات الصوفية لنفس

الهجوم الذى تتعرض له الشيعية. أما فى سوريا، فثمة تناغم بين الجماعات السنية والشيعية. يتحدى الإخوان المسلمون فى سوريا الحكومة التى يهيمن عليها الشيعة العلويون الإسماعيليون، لكن الحكومة اعتمدت على الصوفية وتستمد شرعيتها منها.

وعلى الرغم من هذه الصراعات التاريخية فإن تلك المجموعات متنوعة. ينقسم أتباع كل طائفة على أسس من اللغة والإثنية والطبقية والجندر والجغرافيا والمعتقدات السياسية والمستويات المختلفة من التدين والعلمانية. هذه المجموعات عربية وفارسية وأفغانية وشمال إفريقية وآسيوية وجنوب آسيوية وجنوب شرق آسيوية ولكل منها هوياتها القومية والثقافية المتمايزة. وعلى الرغم من أنها خاضت صراعات فيما بينها، فقد عاشت أيضا فى تناغم وصداقة من خلال التزاوج وتمازج المجموعات وبخاصة فى العراق. وكما سنرى فى الفصل الخامس، فعلى الرغم من أنها تقاتلت فيما بينها، لكنها أيضا حاربت العدو المشترك. ليس العداء بين تلك الجماعات بدرجة عمق العداء بين البروتستانت والكاثوليك.

يتبع أهل السنة القرآن والسنة النبوية. وفى هذا السياق، يتم الفصل بين الدين والدولة، وهو مبدأ يحظى بالاحترام من المراكز الإسلامية المهمة مثل الأزهر بالقاهرة. تعتبر الحكومات والدولة فى الدول ذات الغالبية المسلمة ممثلة للدين ولأتباع الرسول فى الشأن السياسى. ومن ثم، يقتصر دور علماء الدين على التعاطى مع الأمور الدينية لا السياسية. بالنسبة للمجموعات الشيعية، يعتبر مفهوما العقل والاجتهاد (إعمال العقل والعقلانية) على درجة كبيرة من الأهمية (شريعتى). يتيح هذان المفهومان للمجتهدين التوصل إلى تأويلات وقراءات جديدة تتوافق مع الزمان والمكان. يتيح لهم هذا فهم المعنى المحدد للقرآن من خلال

التعليقات وفهم المعنى المضمر من خلال التأويل. وكما يرى راحنيما، فإن مفهوم الاجتهاد «يشكل الجسر بين التعاليم الإلهية الصالحة للأبد وبين المتطلبات التى يحددها الزمن لأى عصر». يرى البعض أن كبار الفقهاء السنة قد أغلقوا باب الاجتهاد منذ القرن الثالث عشر، فيما يرى آخرون أنه قد أغلق منذ القرن العاشر. بيد أنه، وحتى يومنا هذا، فمازال الحوار قائما بين علماء الدين السنة حول ما إن كان للاجتهاد أهمية. أما بالنسبة لعلماء الدين الشيعة، فإن مفهومى «العقل» و«الاجتهاد» يُتيحان لهم تأويل الشئون الاجتماعية السياسية والاجتماعية الاقتصادية بأساليب قد تكون ديمقراطية أو محافظة أو أوتوقراطية أو تتسق مع نظام الحكم الدينى.

يرفض علماء الدين السنة هذه التأويلات أحيانا، ويأخذون بها أحيانا أخرى. مثلا، بيّن لى محمد حسين عادلى، محافظ بنك إيران المركزى فيما بين عامى ١٩٨٩ و١٩٩٤، كيف مكنه تأويله للشريعة من إصلاح النظام المصرفى الإيرانى بحيث يعمل وفقا لمقتضيات العالم اليوم، وذكر أن غالبية المجتمعات السنية قد أخذت بهذا الإصلاح:

«أوجدنا رابطة للمصارف الإسلامية. ناقشنا القضية مع الاقتصاديين المسلمين فى إيران وفى المجتمعات ذات الغالبية المسلمة، وأيضا مع رجال الدين والعلماء المسلمين. أصبح الإصلاح هو المعيار فى إيران وحقق نجاحا، ومنذ وقتئذ، تم قبول هذا النظام فى بعض المجتمعات ذات الغالبية السنية وجارى العمل به».

فى المذهب الشيعى يتم تقليد أرفع رجال الدين مكانة «مراجع التقليد» تساعد تبرعات أفراد الجماعة رجال الدين على القيام بأعمال خيرية وتعليم طلبة الحوزات العلمية. مثلا، تبعث الجماعات الشيعية فى أنحاء الشرق الأوسط بتبرعاتها إلى آيات الله العظمى مثل السيستانى فى

العراق، وفضل الله فى لبنان، وعدد من آيات الله فى إيران. كان كبار رجال الدين الشيعة، تاريخياً، يقيمون بمدينة النجف فى العراق أو قم فى إيران حيث ظلت ثمة روابط قوية بينهم وبين تجار البازارات.

وعلى الرغم من تطابق أساليب العبادة بين أهل السنة والشيعة، إلا أن ثمة بعض الاختلافات الطفيفة. فحينما يصلى الشيعة تظل أيديهم إلى جانبهم، على حين يعقدها أهل السنة فوق صدورهم. بيد أن أهم تمايز بين الطائفتين هو أهمية الصور البصرية لدى الشيعة حيث تماثل الأعمال الفنية الشيعية تلك الموجودة لدى بعض الفئات المسيحية وتشمل الأشكال البشرية. لكن مثل تلك التمثيلات تلقى الاستنكار والشجب من جانب علماء السنة بصفتها انحرافا عن الإسلام وتعبيراً عن عبادة الأصنام. يمثل مفهوم النجاسة أيضا تمايزا بين شيعة إيران وأهل السنة. وهذا مفهوم ظل يعتنقه الزرادشتيون، وهى العقيدة الدينية فى فارس قبل الإسلام، كما يوجد فى الهندوسية بالهند. يرى الزرادشتيون من لا يؤمنون بعقيدتهم أنجاسا وسبيلهم إلى التطهر هو اعتناق الزرداشتية. أيضا يعتقد الشيعة أن الاستشهاد يقوى المذهب الشيعى، كما فى حالة الإمام الحسين. بينما ظل أهل السنة، تاريخيا، يستنكرون الاستشهاد إلى أن اعتنقه المتطرفون منهم فى شكل التفجيرات الانتحارية.

إيران والإمبراطورية الإسلامية:

فى زمن صعود الإسلام، كانت الإمبراطوريتان البيزنطية والساسانية القُوَتين الرئيسيتين بالمنطقة، وكانت اليهودية والمسيحية والزرادشتية هى الديانات المهيمنة فى الإمبراطوريتين. ارتبط الإسلام بوضوح وتحفظ فى آن مع الموروثات الراسخة فى المنطقة. وفقا للإسلام، فإن محمدا نبى يكمل رسالة الأنبياء اليهود والمسيح، ويضم القرآن عددا من القصص

التى تناظر تلك الموجودة بالإنجيل. نتيجة لهذا، لم يكن استيعاب الموروثات الاجتماعية للسكان اليهود والمسيحيين فى الحياة الإسلامية صعبا، كما أن من اعتنقوا الإسلام من المسيحيين واليهود والزرادشتيين أتوا معهم بموروثاتهم وأعرافهم. أتت العديد من القيم والممارسات الاجتماعية مثل الحجاب، والعذرية، واقتناء الحريم من فارس القديمة ومن الموروث الزرادشتى. أيضا، كانت النساء من الجماعات المسيحية شرق الأوسطية يرتدين الحجاب. أما مفهوم الزواج الإسلامى فكان يماثل نظيره فى الديانتين اليهودية والزرادشتية. وكانت الأسرة، والجماعة التى تقوم على الأسرة بين المؤسسات التى ورثها الإسلام وأبقى عليها.

فى زمن الرسول، كانت الجماعات العربية تعيش فى شبه الجزيرة العربية والعراق وسوريا الكبرى (بلاد الشام) التى تتألف من سوريا وفلسطين، وكان الإسلام دينا حضريا. وفى غضون جيل واحد بعد وفاة الرسول، كان العرب المسلمون قد فتحوا إيران وهزمت جيوشهم القوتين العظميين بالمنطقة، أى فارس ومصر، وأجبرت البيزنطيين على الخروج من الشرق الأدنى. فتحت جيوش المسلمين أيضا بلادا تمتد من شمال إفريقيا وحتى غرب أوربا، وسرعان ما توسعت حدود الإمبراطورية الإسلامية من الهند إلى آسيا الوسطى والغرب. فى الفترة التى تشكلت فيها الإمبراطورية الإسلامية أصبحت مصر والعراق بلدين عربيين إسلاميين، أما إيران، فلم تستعرب لكنها تأسلمت. لم تستنفد عملية التحول إلى الإسلام طاقة إيران الثقافية بل أوجدت هوية إيرانية متمايزة داخل العالم الإسلامى، وشهدت نهضة ثقافية عظمى كان من بين تجلياتها أشعار الفردوسى والنظامى والسعدى والحافظ. كان يكمن فى قلب بقاء الهوية القومية الإيرانية مزيج من بقاء النخبة السياسية

والاجتماعية القديمة وامتلاك ثقة ثقافية بالذات. راق الفاتحين المسلمين الموروث الإدارى للملوك الساسانيين، والتقدم الاقتصادى فى إيران ونظامها الضرائبى. وقد أدى هذا ومعه تمسك ملوك الإمبراطورية الساسانية (٢٢٤- ٦١٥م) بالقيم الثقافية الإيرانية إلى الحفاظ على الهوية الإيرانية المتمايزة - وبقيت اللغة الفارسية غير العربية وغير السامية. كان الفتح الإسلامى قد استغرق قرونا حتى اكتمل مما أتاح الفرصة لبقاء بُنَى السلطة المحلية، ومعها النخب الإيرانية الذين اعتنقوا الإسلام وكيّفوه وفقا لمجتمعهم وحافظوا على الموروثات الثقافية والسياسية القديمة. ومع ذلك فقد أُدمج تاريخ إيران قبل الإسلام مع الموروث العربى الكلاسيكى.

حينما انهارت السلالة الساسانية، استمرت الزرادشتية ديانة للنخبة والطبقات العليا. استمر الحكام المحليون يحكمون وفقا للتقاليد الساسانية، وبخاصة فى منطقة بحر قزوين. حدث التحول إلى الإسلام من خلال جاذبية الدين الجديد واستغرقت العملية عدة قرون. لم تُفْرض القوانين العربية الإسلامية على الإيرانيين. فى القرن التاسع، قام الزرادشتيون الذين كانوا مازالوا يمارسون دينهم ويحتلون مواقع السلطة فى الإدارة بترجمة الأدب الفارسى إلى العربية. أيضا، كانت إسهامات العلماء الإيرانيين من أمثال الرازى وابن سينا فى مجال العلوم والطب ودور إيران فى نشر تلك الإسهامات فى أوروبا من خلال اللغة العربية على قدر كبير من الأهمية.

صعود الشيعة إلى السلطة:

فى القرنين العاشر والحادى عشر، كان المذهب الشيعى قويا فى شمال إفريقيا وجنوبى سوريا فيما كانت إيران مركز الفقه السنى. بيد أن إيران وفرت ملاذا للجماعات الشيعية الهاربة من الاضطهاد فى بغداد

ودمشق. وفيما تراجع المذهب الشيعى فى شمال إفريقيا وسوريا، غدت إيران مركزا له ومن ضمن تجليات هذا، أن رضا، الإمام الشيعى الثامن، مدفون فى مدينة مشهد فيما دُفنت شقيقته معصومة بمدينة قم، ويؤم ملايين الحجيج الشيعة من إيران وخارجها ضريحيهما كل عام. أتت الشيعية الإثنى عشرية إلى إيران أثناء حكم الصفويين حيث كان إسماعيل الصفوى قد هزم المغول عام ١٥٠١ وأقام ملك الصفويين. تنافس العثمانيون والصفويون على الهيمنة على العالم الإسلامى، وأضفت الحروب بين الإمبراطوريتين هويات دينية متمايزة على الإيرانيين والأتراك والعرب. وفى النهاية، رسخ الصفويون، الذين كانوا فى الأصل أخوية صوفية سنية، المذهب الشيعى ديناً رسميا فى إيران كوسيلة لتمييز أنفسهم عن العثمانيين، منافسيهم الرئيسيين. وفيما أقاموا هم الإمبراطورية الشيعية حكم العثمانيون الأراضى العربية وجعلوا من الآستانة فى عام ١٥١٧ مركز العقيدة السنية. لم يقتصر الاختلاف بين تلك القوتين العظميين على الشأن الدينى، بل كان الصراع بينهما يدور حول من يحكم العالم الإسلامى. أُجبرت كثير من المجموعات الشيعية فى المناطق ذات الغالبية السنية على الذهاب إلى المنفى وقُتِل بعضهم، وأوجد هذا مزيدا من الصراع بين المذهبين. كان العثمانيون ينظرون إلى أنفسهم على أنهم خلفاء المسلمين ويرون فى حكومة إيران الشيعية القوية تهديدا لهم.

وفى هذا السياق، سعى الشاهات الصفويون إلى الوحدة مع علماء الشيعة وكان هؤلاء العلماء بحاجة إلى دعم شاهات الصفويين، واعتمد بقاء الطرفين وازدهارهما على بعضهما. فى تلك الفترة تغير الخطاب السياسى الشيعى، فقد أصبح المذهب الشيعى الدين الرسمى وحصل بعض علماء الدين الشيعة على سلطة نسبية. لم يعد الشيعة أقلية مقموعة

بل غالبية كبيرة مدمجة فى النظام السياسى. فى تلك الفترة أيضا كانت العلاقة بين القيادات السياسية وعلماء الشيعة فى جوهر الخطاب الشيعى بدلا من الصراعات التى سادت الفترة السابقة. ولذلك، تغيرت طبيعة الجدل: اعتبرت المجموعات الشيعية الصفويين حكومة شرعية إلى أن يظهر الإمام الثانى عشر ليؤسس النظام الإسلامى الشرعى الحق.

ازدهرت الأنشطة الإيرانية/ الشيعية تحت حكم الصفويين. أوجد شاه عباس الذى تولى السلطة عام ١٥٨٧ نسخة حديثة من الهوية الثقافية الإيرانية القديمة وكان المذهب الشيعى أداتياً فى تشكيل هوية قومية متمايزة. ومن اللافت أن ذلك ناظر الفترة المبكرة فى تشكل الدول القومية الحديثة فى أوروبا الغربية. اختار عباس مدينة إصفهان القديمة عاصمة له وسميت إصفهان نصف إى چاهان، أى إصفهان نصف الدنيا. ازدهر المعمار المذهل، ويعتبر المسجد الأزرق الرائع مثالا واحدا فقط، وكذلك أساليب الرسم الجديدة، وأشكال الخطوط الفنية. أصبح ميدان إى ناغشى إى چاهان بُمجمعى مسجديه الرائعين، وتشكيلات السيرامك التى لا نظير لها، وبازاره، أصبح مركزا مزدهرا للثقافة والتجارة الدولية. استقدم الصفويون علماء الدين الشيعة من لبنان وشبه الجزيرة العربية والبحرين من أجل تعميق جذور المذهب الشيعى. عمل هؤلاء العلماء ورجال الدين تحت رعاية الصفويين وأرسوا أسس الأبحاث، والحوزات والمكتبات والمساجد الشيعية فى إيران. وهكذا، أصبح للشيعة منذ وقتئذ روابط قوية مع إيران. مثلا، تعود الروابط بين إيران والشيعة فى جنوب لبنان والعراق إلى قرون عديدة مضت ويوضح هذا سبب أن رجال الدين الشيعة النافذين فى تلك البلاد لهم جذور إيرانية. مثلا، تعود أصول آية الله السيستانى العراقى إلى إيران.

بيد أن سطوة العلماء الشيعة زوت فى الفترة ما بين سقوط الصفويين

(١٥٠١- ١٧٢٢) وحتى تولّى القاچاريين السلطة (١٧٩٤- ١٩٢٥). لم يستطع شاهات القاچار الذين حكموا من خلال القوة العسكرية والقمع السياسى، تجاهل سلطة رجال الدين. أدى ضعف إدارة الدولة وعدم قدرة الشاهات القاچاريين على الوفاء باحتياجات السكان المادية والاجتماعية والسياسية والثقافية، إلى زيادة شعبية رجال الدين وإسهامهم النشط فى القضايا الاجتماعية/ الاقتصادية والسياسية فى تلك الفترة، كان عالم الدين الإسلامى الشيعى الإيرانى أسد عبادى المعروف بجمال الدين الأفغانى (١٨٣٨- ١٨٩٧) رائدا للحداثة الإسلامية وناشطا معاديا للإمبريالية. رفض الأفغانى التيارات الإسلامية المحافظة والمحاكاة العمياء للغرب. بادر بالعدالة وحكم القانون فى سياق معادٍ للاستعمار ولاستبداد الدولة. كان أول من بادر بما أصبح توجها متناميا لتغيير الإسلام من مجرد عقيدة دينية إلى أيديولوجيا سياسية دينية. وكما سنبين فى الفصل السابع، جذبت أفكار الأفغانى رائد الإصلاح الدينى فى مصر الشيخ محمد عبده حينما التقيا فى الأزهر بالقاهرة. ومعا، كان لهما إسهام عظيم فى الفكر الإسلامى الحديث. كان لهذا التوجه أن يستمر من نهاية القرن التاسع عشر وحتى بداية القرن العشرين. فى نهاية القرن التاسع عشر، لعب علماء الدين الإيرانيون دورا مهما فى حركة التبغ الاحتجاجية ضد البريطانيين وفى الثورة الدستورية بين عامى ١٩٠٥- ١٩٠٦، وفى حركة جانجالى (الغابة Jungle) ما بين عامى ١٩١٤- ١٩٢٠ ضد حكم القاچار.

تهميش رجال الدين الشيعة فى القرن العشرين

أثناء حكم أسرة بهلوى شاه (١٩٢٥- ١٩٧٩) لعبت الشيعية كحركة سياسية دينية دورا معارضا مرة أخرى. وكما أوضحنا فى الفصل الأول، أدت التطورات الاجتماعية الاقتصادية أثناء حكم رضا شاه

ومحمد رضا شاه وفى ظل نفوذ البريطانيين أولا، ثم الأمريكيين، أدت إلى تهميش قطاعات عريضة من المجتمع الإيرانى بمن فيهم رجال الدين. دعم آية الله كاشانى حركة مصدق القومية، وفى الستينيات، بزغ آية الله الخمينى شخصية سياسية دينية مهمة.

بيد أن غالبية رجال الدين الإيرانيين وافقوا على إضفاء الشرعية على الحكم الملكى طالما ظل الشاه يدافع عن الهوية الشيعية. وعلى الرغم من أن آية الله الخمينى كان يعتقد فى فصل الدين عن السياسة، إلا أنه، وكما ذكرنا فى الفصل الأول، غيّر موقفه فى نهاية حكم الشاه، وتحت ضغط الأوضاع السياسية، رأى أنه ينبغى أن يكون للدين دور مهم من أجل إنهاء حكم الشاه وعلى هذا الأساس، رأى أيضا أنه يجب تنفيذ مبدأ ولاية الفقيه رغم أنه أكد على وجوب أن تتوافق الممارسات الدينية مع الظروف الراهنة، هذا فى وقت كانت غالبية الشعب تعارض سياسة الشاه الداخلية، والخارجية أيضا، وبخاصة علاقته مع إسرائيل.

وفى هذا السياق تم إحياء قراءة معاصرة للموروث الشيعى لتحدى الحكومات الظالمة والحكام الظالمين والتصدى لهم، وكما أوضحنا فى الفصل الأول أيضا، نَقَد على شريعتى، آنذاك، رجال الدين لعدم اهتمامهم بالوضع السياسى وعدم مشاركتهم فى الثورة. وعلى الفور، وجه كثير من رجال الدين النقد لشريعتى على أساس أن موقفهم لم يتغير، إذ إنه يجب انتظار عودة الإمام الثانى عشر الذين سيأتى بالعدالة للعالم. رد عليهم شريعتى بقوله إنه لا يجوز للجماعات الشيعية أن ترضى فقط بمجرد الانتظار السلبى حتى يعود الإمام الثانى عشر بل يجب أن يعملوا بجد ونشاط كى يسرعوا عودته.

رأى شريعتى أن الدين يمكن أن يصبح دنيويا من خلال ثقافة النقد. من ثم، بإمكان الدين استيعاب جميع الأيديولوجيات بما فى هذا

الماركسية ورؤى فرويد وسارتر ولاهوت التحرير الأمريكى اللاتينى وما بعد الحداثة والليبرالية. استخدم تحليل الماركسية والاشتراكية الطبقى لكنه نقد الشيوعية السوفييتية وكذلك الليبرالية والوجودية. رأى شريعتى أنه يمكن تحقيق الحرية والمساواة بتحرير «الله وحبه من احتكار الدين، وتحرير الحرية من احتكار الرأسمالية والمساواة من احتكار الماركسية». وذهب إلى أن الاستعمار والإمبريالية هما عدوا الإسلام الرئيسيان، وأن الماركسية أيديولوجية منافسة له؛ وأن الشيعية معنية بالدفاع عن الفقراء والمهمشين وتحقيق العدالة. طرح رؤية شعبية حداثية وقتالية إسلامية كان لها تأثيرها على أفكار شرائح عريضة فى إيران والشرق الأوسط. عارض كثير من علماء الدين بمن فيهم عدد من الإسلاميين الحداثيين مثل آية الله مطهرى آراء شريعتى ووصفوها بأنها متطرفة. وعلى الرغم من النقد الكثير الذى وُجِّه إليه، ألقى شريعتى محاضرات كثيرة فى حسينية الإرشاد وهى مركز للخطاب الإسلامى الحداثى بطهران. ذهب إلى أن الإسلام هو أيديولوجيا، وثورة اجتماعية يهدف إلى تشكيل مجتمع حر لا طبقى على أساس المساواة والعدالة، يعيش فيه أناس مستنيرون مسئولون وأحرار. تحدث بلغة جديدة وجدت طريقها إلى عقول جمهوره الذى كان يتكون من آلاف البشر تمتلئ بهم حسينية الإرشاد. كانت رسالته التى اضطلع بها هى تحديث فهم الإسلام وكان يبغض المثابرة فى اتباع التقاليد والأعراف والمؤسسات العتيقة ويعتقد أن التغيير حتمى، وبهذا ولَّد حركة اجتماعية أدت فى النهاية إلى ثورة ١٩٧٩.

رحّب العالم الشيعى بالثورة الإيرانية بفخر واعتزاز. غدت إيران نموذجا للجماعات الشيعية فى المنطقة للنضال من أجل حقوقهم. وفى أنحاء الشرق الأوسط حدثت تظاهرات شيعية وأعمال شغب وتصادمات

مع الأنظمة الحاكمة. مثلا، تسببت الانتفاضات فى البحرين والكويت فى مشاعر القلق وبخاصة من جانب السلطات السعودية إذ إن عمال النفط بالمنطقة الشرقية شيعة فى غالبيتهم، وشهدت تلك المنطقة أعمال شغب سياسية فى عامى ١٩٧٩- ١٩٨٠، قام السعوديون على إثرها بأعمال قمعية ضد الناشطين من عمال النفط المؤيدين لإيران. وكما سنرى لاحقا، كانت نظرة كثير من المجموعات السنية فى المنطقة تجاه إيران إيجابية وبخاصة فيما يتعلق بدورها فى المنطقة والتحول الذى حدث فى سياستها حيث اتخذت موقفا مناصرا للفلسطينيين بعد أن كانت مؤيدة لإسرائيل وتحولت من صديق للحكومات الموالية للولايات المتحدة إلى داعمة للفقراء والمهمشين فى المنطقة. أيضا، نظرت مجموعات اليسار إلى الإسلام بمزيد من الاهتمام، حيث إن الإسلام بالنسبة لإيران هو أيديولوجيا مقاومة أزرت الفقراء والطبقات العاملة، ومن خلال الحشد الجماهيرى نجحت فى الإطاحة بأحد أعتى الأنظمة فى المنطقة.

«المفكرون المتدينون الجدد» وتحدى حكم رجال الدين:

قبل ثورة ١٩٧٩، ارتبط مفهوم «المفكرين المتدينين الجدد» بأعمال على شريعتى وآية الله تالغانى. وبعد الثورة سار عدد من السياسيين ورجال الدين على النهج ذاته ووضعوا أسس الإصلاح. وبعد إقامة الجمهورية الإسلامية تحولت الحركة الشيعية الإيرانية إلى حكم شيعى ومنذ الأيام الأولى للجمهورية الإسلامية رأى آية الله العظمى مطهرى نظرية ولاية الفقيه رأياً أيديولوجياً لا ينبغى أن يؤدى إلى إشراك رجال الدين فى السياسة والحكومة إذ إن دورهم إشرافى هدفه منع الممارسات التى تتعارض مع الشريعة. وكما أوردنا فى الفصل الأول، بُعيد ثورة ١٩٧٩، أدت عوامل داخلية وخارجية إلى زيادة دور رجال الدين المحافظين ونفوذهم فى الدولة والمؤسسات الأخرى. وبعد آية الله مطهرى، أصبح

آية الله منتظرى على قمة من يتحدون دستور إيران الثيوقراطى (الدينى) وظل حتى وفاته ناقدا لدور رجال الدين الإشرافى وتصدى لتفعيل نظرية ولاية الفقيه. ونتيجة لانتقاده القيادات حل آية الله الخامئنى محله خليفة مختارا لآية الله الخمينى، وفرضت على منتظرى الإقامة الجبرية فى عام ١٩٩٧.

ثمة مستويات عدة للنقد الذى يوجه لنظرية ولاية الفقيه. يرى البعض أن النظرية كانت وليدة وقتها حيث كان ينبغى على رجال الدين، فى الفترة الثورية فى نهاية السبعينيات، المشاركة فى الحياة السياسية لضمان نجاح الثورة، لكن الآن، فإن ثمة حاجة للفصل بين الدين والسياسة. ويذهب آخرون إلى أن بعض التأويلات لنظرية ولاية الفقيه أوجدت رد فعلٍ سلبيا فى المجتمع بإمكانه أن يؤدى إلى تراجع مستوى التمسك بالدين. على حين يتخذ البعض موقفا ضد ولاية الفقيه من منطلق علمانى. بل إن ثمة من يرون وجوب عدم اشتغال رجال الدين بالسياسة إطلاقا وأنه ينبغى عليهم فقط الحفاظ على الدين. وبعامة، فقد دفعت تلك الانتقادات الصريحة بإيران فى اتجاه نحو العلمانية.

فى عام ١٩٩٣، استخدم خاتمى أيضا مصطلح «المفكرين المتدينين الجدد» ورأى أن ثمة حاجة إلى شكل جديد من التوجهات الثقافية من أجل الإعلاء من شأن التدين وحقوق الإنسان. ذهب إلى أن الغرب لا يمثل فقط الاستعمار والإمبريالية لكنه أيضا أنبت أفكار ماركس وهيجل وجوته، ويمثل الحداثة والحرية والديموقراطية. كما رأى المفكر الإسلامى عبدالكريم سوروش أن بإمكان هذا الشكل من التوجه الثقافى التعلم من الغرب دون أن يكون عبدا له.

ومن هذه المنطلقات تعاون كثير من «المفكرين المتدينين الجدد»، من رجال دين وصحفيين ومثقفين مع إدارة خاتمى، فيما اتخذ آخرون موقفا

أكثر نقدا من التوجهات الدينية المحافظة. وهكذا، استُخدم مصطلح «المفكرين المتدينين الجدد» فى إيران لوصف الإسلاميين الذين يرون أن ثمة اتساقاً متبادلاً بين الحداثة والإسلام حيث إنه بالإمكان تأويل المفاهيم الإسلامية وإعادة تأويلها بما يتوافق مع الزمان والمكان. يعتنق هذا التوجه بعض الليبراليين، والنيوليبراليين، وبعض اليساريين الذين يؤمنون بالديموقراطية الاجتماعية. يكمن فى عمق تحليلهم الرأى القائل إن القادة السياسيين المحافظين يعملون على تقوية الدين الشعبى من أجل حشد الجماهير لتحقيق مصالحهم الخاصة. نجح هذا الإسلام الشعبى أثناء فترة الثورة، ثم بعد ذلك فى تعبئة الجماهير إبان الحرب مع العراق. يُستخدم القياس بين الإسلام المبكر والمذهب الشيعى آلية قوية بخاصة فى تعبئة الناس. بالنسبة لهؤلاء «المفكرين المتدينين الجدد» فقد ضعفت فكرة الدين الشعبى إذ إن القضايا الدينية الأيديولوجية لا تحل مظالم جماهير الناس التى تتمحور حول قضايا مادية. كان إسلام الثمانينيات تطغى عليه الأيديولوجيا أما الآن، فقد تغيرت مدركات الناس وهوياتهم. أثار وعد توفير التعليم والرعاية الصحية والعمل للفقراء والمهمشين فى الثمانينيات والتسعينيات، توقعات الناس وآمالهم. لكن فشل حكومة خاتمى الإصلاحية وحكومة أحمدى/ نجاد المحافظة فى الوفاء بتوقعات الشباب والمتعلمين زاد من زخم المطالبة بمستويات مقبولة من التعليم والعمل والرفاه الاجتماعى والديموقراطية.

نتيجة لذلك، ينقد كثير من «المفكرين المتدينين الجدد» دور رجال الدين الذين يمارسون السلطة من خلال الدولة وغيرها من المؤسسات، حتى أن بعض رجال الدين الذين يتبنون تلك التوجهات الجديدة سُجنوا نتيجة لآرائهم. فى عام ١٩٩٨، اعتُقِل محسن كاديفار لمقارنته الخطاب الشيعى بالطغيان والحكم المستبد. ذهب إلى أن:

«سجل الثورة ليس بالمجيد إذا نظر إليه من منطلق مطالب الشعب، والشعار الذى أصبح موتيفة الثورة أى: الاستقلال، الحرية، الثورة الإسلامية.. القضاء على القمع الملكى وإقامة العدالة، الإيجابية الوحيدة فى صحيفة ما حققته الثورة هو الشعار الأول إذ إن إيران اليوم تتمتع باستقلال نسبى عن القوى الأجنبية. لكن الثورة لم تنجح سوى فى تغيير وجه الحكم الملكى فى إيران؛ ظل الحكم المستبد والعلاقات الملكية سليمة لم تمس، وأعيد إنتاجها فى شكل الفقيه الوالى المستبد. فالشعب لا يستطيع اختيار الوالى الفقيه مباشرة، وأيضا ليس ثمة تحكم فى أسلوبه أو حكمه، ولا يستطيع فصله من منصبه إذا عمل ضد إرادة الشعب، ومثل الملك المستبد، يظل الوالى الفقيه فى منصبه طوال حياته، وهو فوق القانون. كما أن الثورة أثبطت الإيرانيين من حيث الحرية إذ إن إحدى متطلباتها السابقة هى حرية المعارضة، أى الدرجة التى يستطيع بها من يعارضون الحكومة، وأساليب حكامهم أن ينشطوا فى المجتمع ويعبروا عن آرائهم».

أيضا، أُلقى القبض على رجل دين آخر، هو يوسف إشكڤارى فى عام ٢٠٠٠ بعد عودته من مؤتمر برلين ناقش فيه الإسلام والديموقراطية اعترف فى خطابه الذى ألقاه هناك بأنه حتى إذ هُزِم خاتمى فى عمله فقد أصبحت الديموقراطية الأولولية الأولى كما أنه ثمة إجماع غير مسبوق بين المثقفين والنخب السياسية، على أن الاستبداد التاريخى قد انتهى فى إيران وبالمثل، فإن ثمة رجال دين منشقين وصحفيين، وأكاديميين من أمثال محمد شابستارى وعبدالكريم سوروش وسيد هاچريان وحبيب الله پيمان، وما شاء الله شمس الواعظين ماضين فى تحدى الدولة وغيرها من المؤسسات ومناقشة الحد الذى يمكن به فصل النظرية الدينية والجماعة الدينية عن مجريات السياسة وسلطة الدولة.

هدفهم هو تقدم الديموقراطية خطوة خطوة، والتعلم أثناء تلك العملية ومن خلالها. يرى هؤلاء «المفكرون المتدينون الجدد» أن من الممكن تحقق حكم إسلامي عادل يماثل النظام الذى ساد فى الأيام الأولى للإسلام حينما أضفيت أهمية خاصة على العدالة وحقوق الإنسان.

يركز هؤلاء المفكرون، بصفتهم مثقفين إسلاميين شيعة، على النظام الذى اتبعه عليّ فى الحكم فى أيام الإسلام الأولى. ذهب حبيب الله پيمان فى حوارٍ معى إلى أن:

«علياً اعترف بحقوق الجميع، حتى هؤلاء الذين اختلف معهم، وحتى غير المؤمنين، تقبل التنوع واعترف بحقوقهم. إن جوهر الديموقراطية هو الاعتراف بأن المجتمعات مؤلفة من مجموعات وأديان متنوعة. للأفراد والمجموعات حقوق يجب أن يعترف بها الأفراد الآخرون والحكومات. وفى ظل مثل هذه الديموقراطية ينبغى أن يكون الجميع متساوين أمام القانون. ينبغى أن يكون للناس الحق فى المشاركة فى صنع القرارات، وكما نص القرآن، فإن الإمامة تقتضى العدالة، أى أن على القادة أن يكونوا عادلين كى يقيموا العدالة. لابد أن يقوم الحكم على أساس ديمقراطية الشورى».

أيضا، تحدى الفيلسوف والفقيه النافذ محمد مجتهد شابستانى الأرثوذكسية الحاكمة، إذ إنه يؤمن بالعلاقة الجدلية بين العقيدة والمعرفة ويقترح انفتاح الفقه الإسلامى على الفلسفة المعاصرة. أما بخصوص الفردانية والديموقراطية وحقوق الإنسان، فيرى فصل القيم الدينية عن الوقائع الدنيوية لأنه يؤمن بأن المبادئ الدينية المطلقة لا يمكن تطبيقها بحذافيرها.

أما آية الله صانعى، داعم إصلاح قوانين الأحوال الشخصية لصالح النساء، فيرى أن القوانين والأحكام الشرعية يجب تأويلها بما يتفق مع

الزمان والمكان. كان لدعمه أهمية فى أنشطة النساء ونضالهن من أجل إصلاح القوانين والأحكام التميزية. كانت المنظمات غير الحكومية لنساء الأقليات ومعها المنظمات النسائية غير الحكومية الأخرى قد قامت بحملة طوال التسعينيات لإصلاح قانون الدية. وفقا للبند رقم ٨٨١ من القانون المدنى، والبندين رقم ١٠ و٥٩، لا يدفع المسلم/ المسلمة، فى حالة القتل الخطأ لشخص ينتمى إلى أقلية دينية لأسرته، سوى $\frac{١}{١٢}$ من الدية التى يدفعها فى حالة ما إن كان القتيل/ القتيلة مسلما/ مسلمة، أيضا، فإن مبلغ الدية التى تدفع عن الأنثى نصف ما يُدْفع عن الرجل. فى عام ٢٠٠٢، نجحت المنظمات غير الحكومية للأقليات الدينية (الزرادشت، واليهود والأرمن) فى إصلاح هذا القانون وتغييره لصالح الأقليات. وفى أعقاب هذا الانتصار، بدأت المنظمات غير الحكومية النسائية والمحاميات وعضوات المجلس فى الضغط من أجل قيمة متساوية للدية فى حالة القتلى الرجال والنساء. مثّل هذا تحديا كبيرا من جانب النساء من جميع الهويات الإثنية والدينية للقوانين الشرعية الإسلامية فى إيران. وفى عام ٢٠٠٨، ونتيجة لحملات النساء، تمت الموافقة، وعلى أسس صحية فى أن تكون قيمة الدية عن النساء والرجال متساوية. فى هذا الصدد، قالت لى مرضية مرتضى:

«فى البداية قلنا إنه إن أصيب الرجال والنساء بأمراض لها علاقة بالدم، فينبغى أن تكون الدية متساوية وبدعم عدد من آيات الله، تمت الموافقة على ذلك. ثم مضينا نضغط على السلطات لتعمم ذلك على قتلى الحوادث. قد يرفض «مجلس الأوصياء» هذه المساواة لأن رجال الدين المحافظين قد يفسرون هذا الإصلاح على أنه يناقض أحكام الشريعة، وإذا حدث ذلك سنحيل مطلبنا إلى «مجلس الضرورات» بحجة أنه ينبغى

القبول به لأنه يتفق مع احتياجات المجتمع الحالية وكلنا ثقة أنه سيتم قبوله».

وفقا لفريدة ماشيني، إحدى ناشطات حقوق النساء، فإن «ثمة ٢,٥ مليون أسرة تعولها نساء. علينا تغيير الأحكام لتتوافق مع احتياجات العصر. وفقا للإسلام، يمكن للدين أن يكون جزءا من السياسة بموافقة الشعب فقط». نأتي بحجة مقنعة بأن نتحدى القادة المحافظين الذين غيروا القوانين والأحكام التي يعمل وفقها النظام المصرفي الإسلامي لكي يجعلوا الاقتصاد الإيراني متسقا مع النظام الكوكبي، وفي نفس الوقت يرفضون تغيير قوانين الأسرة لصالح النساء. وفي هذا الصدد تذهب إلى أنه:

«ثمة أناس في إيران يرون المساواة بين النوعين على أنها أيديولوجيا غربية دخيلة ستضعف الإسلام. تعمل شيطنة الغرب لإيران على تقوية موقفهم. وبالمقابل، فثمة من يرون أن جذور قهر النساء مصدرها الإسلام. واليوم، فلدينا حركة بين هذين الرأيين اللذين تفصل بينهما مسافة شاسعة. إن خطاب التفكير الديني الجديد كحركة جديدة يؤكد على أهمية الإسلام في إيران. نعتقد أن أحكام الشريعة تاريخيا قد فسرها رجال لخدمة مصالح مجتمع يهيمن عليه الذكور، وأبقوا على قمع المرأة مؤبداً باسم الدين. نحن نتحدى القراءة الذكورية للإسلام. تعمل مشاركة النساء المتنامية في المجال العام للحياة على تحدي المواقف البطريركية. تريد النساء تأويلا مختلفا للدين وفقا لمقتضيات عالم اليوم، وهذا هو الأسلوب الوحيد للحفاظ على الدين».

يعتقد «المفكرون المتدينون الجدد» أن الدين لا يمكنه أن يقمع إرادة الشعب، الأحرى، فإن دوره في السياسة لابد أن يستمد شرعيته من

التأييد الشعبى. يتحدون القيادات حينما تبتعد عن مصالح عامة الناس، وكما ذكرنا فى الفصل الثانى، يخلق القمع السياسى، والتحكم فى الإعلام، والقيود التى تفرضها الدولة على عمل الصحافة الحرة، وعلى حرية التجمع والكلام، تخلق العقبات فى طريق نشطاء الديموقراطية الذين يعملون على تطوير روابط دينامية تفاعلية مع عامة الناس. لقد كان للضغوط الداخلية والخارجية أثرها السلبى على حركة الديموقراطية ونجم عنها وجود فجوات بين النخبة وجماهير القاعدة. وعلى الرغم من ذلك، فإن «المفكرين المتدينين الجدد» عميقو التجذر فى مجتمعهم لأنهم يعملون داخل الأطر والتقاليد الإسلامية. ومن ثم، لابد أن ينجحوا يوما فى اكتساب الدعم الشعبى.

فى أعقاب انتخابات الرئاسة و«الانتفاضة» فى صيف ٢٠٠٩، أعلن آية الله العظمى منتظرى تأييده لحركة الديموقراطية ودعا الناس إلى مواصلة احتجاجهم. رأى أن:

«رجال الدين الشيعة وقفوا إلى جانب الشعب. واليوم فإن ثمة انقساماً. يتمسك أحد الأطراف بالسلطة بأية وسيلة كانت، ويستمر الطرف الآخر فى الوقوف إلى جانب الشعب ويضفى أهمية على حقوق الشعب أكبر مما يضفيه على حقوق النظام. من ثم، فإن رجال الدين الشيعة يواجهون خيارا تاريخيا: إما أن يصبحوا أداة أيديولوجية لنظام استبدادى أو يقفوا إلى جانب الشعب ويعودوا إلى ثقافة الاحتجاج الشيعية».

حذر سلطات الدولة بقوله إنه إذا لم يستطع الناس رفع أصواتهم بشأن حقوقهم المشروعة، وإذا تم قمع تظاهراتهم، ستتطور تعقيدات بإمكانها أن تؤدى إلى اقتلاع الحكومة. وكما ذهب باجر موين «إن

معارضة (منتظرى) السياسية للظلم مثلت فعل تحدٍ مهما حاول تغيير أساس الفقه الشيعى من حماية حق المؤمنين إلى حماية حق المواطن». كان هو رجل الدين الوحيد الذى أصدر فتوى يدعو فيها إلى احترام حقوق البهائيين. وفى هذا الصدد، فقد «وسع حدود الفقه الشيعى ليشمل مجال حقوق الإنسان». يرى محسن كاديڤار أن للمواطنين الحق فى الاحتجاج وفقا للدستور:

«إن احتجاجنا سلمى ونحن دولة إسلامية حقة تحترم حقوق الإنسان وحقوق النساء، وتسمح للناس بأن ينتخبوا قادتهم الدينيين والدنيويين بحرية. وفى مثل هذا المجتمع، ليس للقادة الدينيين الحق فى تقرير كيفية قيادة الدولة بالتعارض مع غالبية الشعب. وعلى المدى الطويل، ليس بوسع النظام أن يقف فى مواجهة ملايين المتظاهرين السلميين، إلا إذا تخير ارتكاب المذابح، وإن فعل ذلك، فسيفقد شرعيته تماما».

يوضح تحليل للديناميات السياسية الداخلية فى إيران، كدولة ظلت دينية/ سياسية منذ ثورة ١٩٧٩، يوضح أن التناقضات المتعضونة فى الدولة الإسلامية فى سبيلها لتغيير حدود الإسلام المحافظ، بحيث تؤدى إلى ظهور حركة ديمقراطية مهمة. وكما سنوضح فى الفصول التالية، تتمتع إيران بشعبية لدى غالبية اللبنانيين والفلسطينيين والمصريين لأنها البلد الوحيد فى المنطقة الذى يعارض الصهيونية والإمبريالية ويتصدى لهما.

بيد أن دعم الشعوب فى أنحاء الشرق الأوسط لحركة الديموقراطية فى إيران محدود وغير يقينى وذلك لدعم السياسيين والإعلام فى الغرب لها. يرى كثيرون أن سياسة إيران القمعية الداخلية تتعارض مع سياساتها الإقليمية المعادية للصهيونية والإمبريالية. لقد اعتنقوا فكرة

الإسلام الديموقراطى ويرون أنه ينبغى للإسلام كأيديولوجيا مقاومة القمع والهيمنة السياسية السلطوية. وفى هذا السياق، يمكن القول إن موقف رجال الدين الإصلاحيين فى إيران – الذى يناظر موقف آية الله فضل الله فى لبنان، وآية الله السيستانى فى العراق سيسهم فى تشكيل مستقبل الديموقراطية فى الشرق الأوسط.

obeikandl.com